

17 تركيز لا تكاثر

كان في تدقيق الانتقاء ما يعصم من قواصم العفوية.

وتكمن العاصمة الثانية في تجميع متناسب مع جهود المربين، بحيث يمكن إسماعهم جميعاً الكلام الموجه، بتركيز مؤثر، ومنع التأثيرات الخارجية عنهم.

ولا شك في صعوبة هذا الحل الثاني.

ويقصد بالصعوبة: صعوبة (السيطرة) على الرغبات النفسية الأصلية في كل إنسان في حب (الثراء) في كل شيء، مما أشار إليها القرآن الكريم بإجمال في قوله تعالى: (ألهاكم التكاثر).

فالإنسان يحب الثراء الكمي العددي، في المال، والعلوم، والبنين، والأنصار، في كل شيء.

وهي نزعة أو غريزة لا يمكن السيطرة عليها إلا بالتربية العميقة.

وخطورة إهمالها تتأتى من أن إشباع الغريزة يؤدي إلى حصول (النشوة) في الإنسان، والنشوة حالة من حالات النفس تؤثر على العقل تأثيراً سلبياً، فتجعله في ركود.

إن النشوة ضد الخوف.

وفي النفس الإنسانية يقترن الاطمئنان مع النشوة، والحذر مع الخوف.

والمعروف أن العقل أقصى ما يكون تحفزاً واشتغالا وشحذاً في حالة الحذر.

ومن هنا تصاحب الشهوة اندفاعات غير مدروسة، يشترك فيها الجميع، القادة وتلاميذهم، لأن الإحساس بالثراء يولد الاطمئنان وإيجاءات الضمان.

معارك النفس

إن هذا التقرير يؤكد ما قلناه من صعوبة الحركة التي تخوضها الدعوة، فإن ميدان المعركة هو النفس الإنسانية بكل تعقيداتها ومتناقضاتها.

أنت لا تتعامل مع أحجار صلدة، ولا مع أصحاب طهر ملائكي. أنت تعيش وتتعامل مع نفس إنسانية، فيها الغرائز، غرائز حب البقاء، وحب التكاثر والثراء، وإشباع الشهوات الجنسية، وفيها النزعات: نزعات الثأر، والحذر، والدفاع عن عقيدتها، وحب شيوعها.

والمجتمع الذي أمامك هو مجموع هذه الغرائز والنزعات والميول والرغبات، فإن لم تعرف المداخل والأبواب التي تدخل منها إلى هذا، المجموع من الغرائز والنزعات المسمى بـ(المجتمع) فإن الفشل يصيبك حتمًا، وإذا غالطت نفسك وتجاهلت هذه الغرائز والنزعات فلن يضر وجودها شيء، وأنت تضار.

ستبقى هي لأنها وجدت بإذن الله لتبقى، أما أنت فستزول وتخونك حساباتك وتقديرات لأنك خالفت الفطرة.

إن النفس الإنسانية هي ميدان كل هذه الانقلابات الاجتماعية والسياسية الكثيرة المتواصلة التي يحدثنا عنها التاريخ القديم والحديث. اندفاع وراء إشباع البطون، أو إشباع الشهوة الجنسية أو طلب الترف. اندفاع ثأر ممن سلبها أرضها أو نساءها.

اندفاع وراء إشاعة عقيدة اعتقدتها، أو محاربة من يخالف هذه العقيدة، بالمفهوم الواسع للعقيدة، من مثل وقيم، حقة أو باطلة.

إنه اندفاعات مادية ومعنوية، قد تجتمع وقد تنفرد، هؤلاء هم البشر.

إن بعضهم قد وجد في نفسه المقدرة على توجيه الآخرين نحو قسم من هذه التصرفات التي تساعد عليها الغرائز والفطرة، فسمينا عمله هذا: (تربية).
إن معارك السياسة والحروب صورة لمعارك النفس.

الهالك المتكاثر بالأمس: فاتزنوا

وإذن، فإن معركتنا معركة تربوية، أي أنها تقوى وتشدد كلما تعمقت التربية، وأتقن المربي عمله، وتخبو جذوتها كلما فترت التربية، وكانت سطحية.

أي أن الجهود التربوية لعدد محدود من القادة المربين إذا تركزت على التلاميذ فإنها تكون أعمق تأثيراً فيهم كلما قل عددهم، بتناسب طردي، وتفتقر ويقل تأثيرها كلما زاد عددهم.
ومع هبوط كمية التأثير يحصل الاندفاع العفوي غير الهادف، ثم القاصمة والمصرع.

وإذن، فإن من صالح معركتنا ألا يندفع الصنف القيادي المتولي لعملية التربية في جميع عدد من التلاميذ أكبر مما تكفي له جهودهم التربوية، مادامت الدعوة في مراحلها الأولى، ولا يكون التوسع العددي إلا في المراحل المتقدمة بعدما نضمن وجود تأثير تربوي غير مباشر يأتينا عن طريق وسائل الإعلام الدعوية، من كتب وصحافة وأشرطة مرئية وصوتية، وعن طريق التحرك الواسع المعلن لبعض قادة الدعوة ومفكرها وخطبائها.

وهذا هو الحل الثاني للوقاية من مصارع العفوية يمليه تحليل الظاهرة التربوية.

ولقد شهد تاريخ الحركة الإسلامية بالأمس القريب تكاثراً بالعدد على حساب النوعية أرهاق وألمى، وأجبر دعاة اليوم على الاتعاض، وما اتزان التوسع إلا وصية الغد.

تقول: إنها وصية الغد، لما رأينا من نسيانها، وإلا فإنها الوصية القديمة للإمام البنا /، شدد عليها منذ سنة ١٩٣٨ في انعقاد المؤتمر الخامس، في صورة توضيح لأصناف الرجال، أمام أعباء العمل، وعدم إغناء الخيال من الصواب شيئاً، وإنما هي (الصفوة) فحسب -كما سماها الإمام، واستعارها السيد من بعد- تحمل أعباء الجهاد.

يقول:

(أريد أن أكون صريحاً معكم للغاية، فلم تعد تنفعنا إلا المصارحة: إن ميدان القول غير ميدان الخيال، وميدان العمل غير ميدان القول، وميدان الجهاد غير ميدان العمل، وميدان الجهاد الحق غير ميدان الجهاد الخاطئ. يسهل على كثير أن يتخيّلوا، ولكن ليس كل خيال يدور بالبال يستطيع تصويره أقوالاً باللسان، وإن كثيرين يستطيعون أن يقولوا، ولكن قليلين من هؤلاء يثبتون عند العمل، وكثير من هذا القليل يستطيعون أن يعملوا، ولكن قليلاً منهم يقدرّون على حمل أعباء الجهاد الشاق، والعمل العنيف، وهؤلاء المجاهدون، وهم الصفوة القلائل من الأنصار، قد يخطئون الطريق ولا يصيبون الهدف إن لم تتداركهم عناية الله، وفي قصة طالوت بيان لما أقول:

فأعدوا أنفسكم، وأقبلوا عليها بالتربية الصحيحة، والاختيار الدقيق، وامتحنوها بالعمل القوي البغض لديها، الشاق عليها، وافطموها عن شهواتها ومألوفاتها وعاداتها) ^(١).

وورث سيد / هذا الفقه، فجعله قلقلًا قبيل وفاته إزاء ما يرى في السودان من التوسع وامتلاء الشوارع بمظاهرات المسلمين، فأوصى من زاره من دعاة الإسلام في السودان فقال:

(يجب ألا يشغلكم إقبال الجماهير عن تنظيم صفوفكم الداخلية وإعداد رجال يواجهون الشدائد ويثبتون) ^(١).

والحقيقة أن أهمية الصف الداخلي المتين لا تنحصر - في معطيات صفته التنظيمية وسهولة استثمار طاقاته المنسقة، بل في تحقيقه (المجتمع التربوي) الذي يحتضن الجديد المتربي ويريه زيادة المناظر الإسلامية ويوجب عنه رؤية الجاهلية والجاهلين وسماع أقوالهم، فيبعد عن التأثير بتربية أخرى غير إسلامية، ولمثل هذا أوجب الغزالي / المسارعة إلى كبت الفسق وحجبه لئلا يؤثر منظره في نفوس المسلمين، وقال:

(إن مشاهدة الفسق تهون أمر المعصية على القلب، وتبطل نفرة القلب عنها) ^(٢).

وهذا يعني أيضا أن بقاء بعض الفسق - بمعناه الشرعي - عالقا بالأشخاص الذين تجمعهم، لعجز كفاياتنا وطاقاتنا التربوية التوجيهية عن إزالته عنهم وتحويلهم عنه لكثرة عددهم، سوف يؤدي إلى احتمال سريان عدواه إلى العناصر النظيفة، لما في العيش الجماعي من المشاهدة التي تؤدي إلى التقليد.

وعلى ذلك، فإن جولات الداعية الضرورية بين الجماهير العامة مثلما تؤدي إلى تربيته عمليا، وإلى إغناء الدعوة بالعناصر الجديدة التي يكتشفها،

(١) كتاب الشهيد سيد قطب / ٩١.

(٢) إحياء علوم الدين ١٧٢ / ٢.

فإنها تؤدي أيضًا إلى احتمال تهوين أمر المعصية على قلبه إذا انقطع إليهم انقطاعا طويلا، لكثرة المعاصي في حياة العامة، فوجب ترده على مجتمع الدعاة الصافي ليرى من مناظر الإيمان ما يضاد مناظر الفسق، ويكون جائلا بين هذا المجتمع العام، وبين هذا المجتمع الخاص الذي يرفق قلبه إن أضر به الأول، وهذا ما يؤدي بالتالي إلى الحرص على نقاوة هذا المجتمع الخاص ليؤدي مهمته التربوية هذه لكل داعية متجول بين العامة حين يفيء إليه، والنقاوة لا تحصل إلا باتزان التوسع.

فكما أن التوسع السريع يستهلك الطاقة الحاضرة، فإنه يضعف الناتج القديم.

دور التجمع في التربية التكميلية

والداعية الحر، المتفاعل مع التطورات والحاجات اليومية للحركة الإسلامية، يرى عمر بن الخطاب^١ واقفا أمامه في كل لحظة، وهو يدعو دعاءه المشهور:

(اللهم إني أعوذ بك من جلد الفاجر، وعجز الثقة).

فترتعش عضلاته رهبة، ويهفو قلبه رغبة، ويسارع ليتخذ من الإمكانيات التربوية للعمل الجماعي، ما يرضي به ظن أبي حفص الفاروق، فيعكف على توعية الأمين العاجز الساذج، وترقيق قلب ذي الجلادة الشغل المتهاون بأمر بعض الأعمال الإيمانية، ليزداد -بهذا السد للنقص - عدد الثقات الذين يجمعون بين الوعي والجلادة.

وهذا العنصر القوى الأمين هو خير من ينهض بأعباء الدعوة، ولا بد من تكميل صفة الجهاد في المؤمن، وتعميق إيمان المجاهد، كما قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ﴾ [الأنفال: ٧٥].

قال ابن تيمية:

(عقد الله سبحانه الموالاتة بين المهاجرين والأنصار، وبين من آمن من بعدهم وهاجر إلى يوم القيامة: والمهاجر من هجر ما نهي الله عنه، والجهاد باق إلى يوم القيامة.

فكل شخص يمكن أن يقوم به هذان الوصفان، إذ كان كثير من النفوس اللينة يميل إلى هجر السيئات دون الجهاد، والنفوس القوية قد تميل إلى الجهاد دون هجر السيئات.

وإنما عقد الله الموالاتة لمن جمع بين الوصفين، وهم أمة محمد ﷺ الذين آمنوا به إيماناً صادقاً^(١).

وتمكن كل داعية من الجمع بين الوصفين، وتمكين القضية الإسلامية من استثمار حسنات الطائفتين، مهمتان أساسيتان لتربيتنا الحركية.

فلأول: صاحب الإيمان، القاعد، أو صاحب الوعي ذي القلب القاسي، بما تتيحه التربية من تكميل نقصه على يد من سبقه من الدعاة.

وللقضية الإسلامية بما يكون من تنسيق جهود الطائفتين بنوع تكامل وتعادل، وجمعها، وتخطيط صرفها لتؤدي فائدتها مجتمعة مركزة.

ليس من الجهد ما يهدر، ولكن النجاح قد يتأخر

وتضييق الأرض بمتحمسة الدعاة حين نلح في بيان اتزان التوسع في وقت طال فيه المسير، ويرون أن هناك ثمة فشلاً يصيب الدعوة إن تخلت عن سباق العدد.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية/ ٤٩.

ولا ننكر أن أخطاء الماضي قد حرمت الدعوة في أماكن متعددة من العالم الإسلامي من فرص توسع وانبات مأمون في محيط مستعد لتقبل الكلمة، وأن أحزاب الضلال قد استغلت برود دعاة الإسلام فتقدمت بمراحل عليهم، ولكن الخطأ لا يستدرك بمثله، وتقييم فشل الدعوة ونجاحها في حقبة معينة لا يعتمد على إحصاء من استطاعت نقلهم من آلاف من الشباب وعصمتهم من الفجور والزيغ وإن لم يدخلوا صفوفها، لأسباب مختلفة، وهذا في ميزان الإسلام عظيم.

وطالما كانت الدعوة كالواحة في وسط الصحراء الموحشة المقفرة حين تأوي إليها جموع المسافرين فينعمون بظلها، ومائها ويأمنون بأهلها، وكثير عدد أولئك الشباب الذين احتضنتهم الدعوة في مراهقتهم، واجتازت بهم فترة الشباب بسلام، ورفلوا في ظلها، وأنسوا بأهلها، وإن أقعدهم الترسب والترهب عن مواصلة السبر معها.

وكم نقلت الدعوة شاكا إلى اليقين، ومؤمنا جاهلا إلى العلم، وهذا في الميزان الشرعي عظيم.

وكم أوضحت الدعوة من شك، وردت من تهمة، وأشادت بمناب مظلوم، وكل ذلك في الميزان عظيم.

وإذن، فإننا يجب ألا ننظر بالمنظار القاتم الذي يولد اليأس في نفوس العاملين، فإن الدعوة لم تفشل، ومنتظر من عمل فيها أجر مدخر كبير إن شاء الله مثلما ينتظرهم جنبي ثمار كثيرة زرعوا بذورها بالأمس.

إن أناسا كثيرين، بتأثير عمل الدعاة الماضي والحاضر، تحتم في نفوسهم معاني الإيمان والجاهلية، هم الآن في صراع نفسي داخلي عنيف غير منظور، يؤمنون ويقرون بما يقول دعاة الإسلام أم يبقون على ما هم عليه؟ وهؤلاء

مصيرهم إلى الإيمان حتما حين يتضح الحق أمامهم اتضاحا كافيا، في حادثة تهزمهم هزا، وتخضعهم خضعا، فيتمحضون، وينخرق حجاب الران عن القلب، فيصل إليه النور، تماما كالإسلام المفاجئ الماثور عن بعض الصحابة **ي**، كعمر حين دنا من الصفا، فسمع أخته تتلو القرآن، فصفا، أو حمزة حين رجع من الصيد، فسمع كلام المؤامرة على رسول الله ﷺ، فأمن وكسر القيد.

هل يقال إن كل أسباب إيمانهم جاءتهم في لحظة واحدة؟

كلا، فإن معاني الإيمان كانت تحتدم في نفوسهم، وكان هناك صراع نفسي ظل يتنامي حتى فاض سيل الخير في تلك اللحظة.

ولئن حرصنا اليوم على عمق التربية، والاقترار على الصفوة، واتزان التوسع، فللوفاء بحاجة جحافل أهل الاحتدام هؤلاء يكون هذا الحرص، وإنهم لفي سير إلينا، وعمما قريب يكون الوصول، والحادثة الهازة الخاضعة خبيئة عند الله، يرحم الله بها الصابرين، ومن لا يؤمن بمثلها فهو بحاجة إلى نظر في السيرة والتاريخ جديد...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

